وأطلق الصدور على الضمائر لأن الصدر في كلام العرب يطلق على الإحساس الباطني وفي الحديث " الإثم ما حاك في صدرك " وأطلق القلب على الاعتقاد لأن القلب في لسان العرب هو ما به يحصل التفكر والاعتقاد . وعدي إلى الصدور فعل الابتلاء لأنه الأخلاق والضمائر : ما فيها من خير وشر وليتميز ما في النفس . وعدي إلى القلوب فعل التمحيص لأن الظنون والعقائد محتاجة إلى التمحيص لتكون مصدر كل خير .

( إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا ا عنهم إن ا غفور حليم [ 155 ] ) استئناف لبيان سبب الهزيمة الخفي وهي استزلال الشيطان إياهم وأراد ب ( يوم التقى الجمعان ) يوم أحد و ( استزلهم ) بمعنى أزلهم أي جعلهم زالين والزلل مستعار لفعل الخطيئة والسين والتاء فيه للتأكيد مثل استفاد واستبشر واستنشق وقول النابغة : .

وهم قتلوا الطائي بالجو عنوة ... أبا جابر فاستنكحوا أم جابر أي نكحوا . ومنه قوله تعالى ( واستغنى ا ) وقوله ( أبى واستكبر ) . ولا يحسن حمل السين والتاء على معنى الطلب لأن المقصود لومهم على وقوعهم في معصية الرسول فهو زلل واقع .

والمراد بالزلل الانهزام وإطلاق الزلل عليه معلوم مشهور كإطلاق ثبات القدم على ضده وهو النصر قال تعالى ( وثبت أقدامنا ) .

والباء في ( ببعض ما كسبوا ) للسببية وأريد ( ببعض ما كسبوا ) مفارقة موقفهم وعصيان أمر الرسول والتنازع والتعجيل إلى الغنيمة والمعنى أن ما أصابهم كان من آثار الشيطان وما هم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم والمقصد من هذا إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم وإبطال ما عرض به المنافقون من رمي تبعة على أمر الرسول E والخروج وتحريض ا المؤمنين على الجهاد . وذلك شأن ضعاف العقول أن يشتبه عليهم مقارن الفعل بسببه ولأجل تخليص الأفكار من هذا الغلط وضع أهل المنطق باب القضية اللزومية والقضية الاتفاقية .

ومناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها أنه تعالى بعد أن بين لهم مرتبة حق اليقين بقوله ( قل لو كنتم في بيوتكم ) انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة فبين لهم أنه إن كان للأسباب تأثير فسبب مصيبتهم هي أفعالهم التي أملاها الشيطان عليهم وأضلهم فلم يتفطنوا إلى السبب والتبس عليهم بالمقارن ومن شأن هذه الضلال أن يحول بين المخطئ وبين تدارك خطئه ولا يخفى ما في الجمع بيم هذه الأغراض من العلم الصحيح وتزكية النفوس وتحبيب ا ورسوله للمؤمنين وتعظيمه عندهم وتنفيرهم من الشيطان والأفعال الذميمة ومعصية الرسول

وتسفيه أحلام المشركين والمنافقين . وعلى هذا فالمراد من الذين تولوا نفس المخاطبين بقوله ( ثم صرفهم عنهم... ) الآيات . وضمير ( منكم ) راجع إلى عامة جيش أحد فشمل الذين ثبتوا ولم يفروا . وعن السدي أن الذين تولوا جماعة هربوا إلى المدينة .

وللمفسرين في قوله ( استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ) احتمالات ذكرها صاحب الشاف والفخر وهي بمعزل عن القصد .

وقوله ( ولقد عفا ا عنهم ) أعيد الإخبار بالعفو تأنيسا لهم كقوله ( ولقد عفا عنكم ) .

( يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل ا ذلك حسرة في قلوبهم وا يحي ويميت وا بما تعملون بصير [ 156 ] ) تحذي من العود إلى مخالجة عقائد المشركين وبيتان لسوء عاقبة تلك العقائد في الدنيا أيضا . والكلام استئناف . والإقبال على المؤمنين بالخطاب تلطف بهم جميعا بعد تقريع فريق منهم الذين تولوا يوم التقى الجمعان . واللام في قوله ( لإخوانهم ) ليست لام تعدية فعل القول بل هي لام العلة كقوله تعالى ) ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا لأن الإخوان ليسوا متكلما معهم بل هم الذين ماتوا وقتلوا والمراد بالإخوان الأقارب في النسب أي من الخزرج المؤمنين لأن الشهداء من المؤمنين .

و ( إذا ) هنا ظرف للماضي بدليل فعلي ( قالوا ) و ( ضربوا ) وقد حذف فعل دل عليه قوله ( ما ماتوا ) تقديره : فماتوا في سفرهم أو قتلوا في الغزو .

A E